

إجازة الإقراء في الجزائر بين إشراقات الماضي وتهديات المستقبل

إعداد : أ / نور الدين محمدي

معهد القراءات / الجزائر

المقدمة :

العقد بين الله وبين عباده، ولما كانت تلك القراءة تتعلق بالأداء، وترتبط بالإتقان، وتتصل بالمشافهة؛ نشأت طرق التحمل المختلفة لتحفظ هذا الإتقان وتحافظ على تلك المشافهة حتى لا يدخل الدخيل، ولا تشرئب عين الضعيف نحو كتاب الله فيعلمه بالطرق الضعيفة فيضيع القرآن .
الإجازة في عهد النبوة بين علو السند والمشافهة المباركة :

بدأت طرق التحمل في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ فكل أصحابه مجازون من طرفه بالاشتهار؛ وهذه الشهرة في تلقيمهم للقرآن بحضرته كفت عن قول أجزتك؛ فمن ينكر أن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فإن القرآن الكريم معجزة جرت على الألسنة، وتعلقت بها الأفئدة، وتيممت بها النفوس، وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون التعلق بالقرآن متصلا بالخالق سبحانه بسند من نور ؛ قال تعالى: {لَا تَزِرُكُ بِهِ وِزْرَتُهُمْ لِنُعَذِّبَ بِهِ الَّذِينَ عَادُوا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ فَاِلَيْنَا قُرْآنُهُ فَاُنَبِّئُ قُرْآنَهُ} ⁽¹⁾؛ إنها قراءة التلقين وقراءة الإتياع متصلة السند بالحضرة الإلهية يكون فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) واسطة

أبي ابن كعب قرأ على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فعن أنس قال : « إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب : إني أمرت أن أقرئك القرآن أو أقرأ عليك القرآن ؛ قال : سماني لك أو قال : وقد ذكرت عند رب العالمين ؛ قال : نعم »⁽²⁾ ؛ ففي هذا الحديث دليل على أن الله تعالى اختار التلميذ للمقرئ . واستمر الحال في عهد التابعين فكان يعرف من قرأ على الصحابة الكرام كما يعرف صاحب من صاحب ؛ ولإقرار الصحابة لمن قرأ عليهم بالاتقان كفاهم عن قول أجرتك ؛ فعن سويد بن عبد العزيز قال : « كان أبو الدرداء إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه ؛ فكان يجعلهم عشرة عشرة ، وعلى كل عشرة عريفا (أي شيخا سيدا على العشرة يشرف على تعليمهم وتلقينهم) ، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره ؛ فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه ؛ فإذا غلط

العريف رجع إلى أبي الدرداء فسأله عن ذلك ، وكان ابن عامر عريفا على عشرة فلما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر »⁽³⁾ . وكانوا يتحدثون بالسند ويسمون طبقاته ؛ فعن حفص بن عمر أن عاصم بن بهدلة وعطاء بن السائب ومحمد بن أبي أيوب الثقفي وعبد الله بن عيسى بن أبي ليلى حدثوه بأنهم قرأوا على أبي عبد الرحمن السلمي ، وذكروا أنه قرأ على عثمان وقال : « وكنت ألقى عليا فأسأله فيخبرني ، ويقول لي : عليك يزيد بن ثابت ؛ فأقبلت على زيد فقرأت عليه القرآن ثلاث عشرة مرة »⁽⁴⁾ .

واستمر الحال على ذلك حتى تعددت الطرق واختلط الضعيف ؛ فصاركبار القراء يرحلون طلبا للصحيح المتواتر ؛ فتطلب الأمر بعد ذلك إلى تحرير سند القراءة بما يعرف بالإجازة .

أسباب الإجازة : لم تكن الإجازة القرآنية مطلبا ملحا إلا بعدما تعددت

« ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة ولا علم التكلف؛ فهفوا في كثير من الحروف وزلوا فأخلوا»⁽⁵⁾.

2. المحافظة على اتصال القراءة

سندا ومتنا :

لأن ضياع الإجازة ضياع للسند فيبقى المتن يقرأ من غير إتقان ولا مشافهة ، وحال الأمة إبان الاستعمار مثال صادق على ضياع الإجازة ؛ حتى مرت علينا سنوات لم نكن نسمع من قراءة القراء إلا أواخر الكلمات ورؤوس الآيات .

3 . تحصين القرآن المتواتر من الشاذ المتروك :

لأن العبرة بما سمعه الآخر من الأول مع قوة الارتباط بين التلميذ والشيخ طيلة طبقات السند، وهذه الإجازة المتصلة تصفي القرآن من كل قراءة شاذة خالفت أركان القراءة المقبولة .

الروايات، وكثرت الطرق، وحصلت المشقة في تحصيل القراءات بسبب ظهور القراءات الشاذة ؛ فتطلب الأمر تحرير الإجازة والسؤال عنها بحثا عن التواتر وطلبها للسند الصحيح العالي ، ونستطيع أن نوجز الأسباب التي دعت إلى تحرير الإجازة في الآتي :

1 . دخول لحن العجم على لحن

العرب :

كان الأوائل من المسلمين يقرؤون القرآن بلحن العرب؛ بمخارجها السليمة وصفاتها المستقيمة ؛ بريئة من كل عيب ؛ نقية من كل شدة ؛ خالصة من كل مبالغة ؛ فلما اتسعت رقعة الإسلام ودخل العجم فيه اختلطت لحن العجم بلحن العرب؛ فطراً التكلف على النطق إلى ذروة الوسواس ، ونشأت المبالغة في المخارج إلى حد الالتباس؛ فتطلب الأمر تشديد الإقراء بالسماع والمشافهة لملاحظة الإتقان والمتابعة ؛ قال ابن قتيبة :

طرق الإجازة :

اختلفت طرق تحرير الإجازة من مقرئ إلى آخر على حسب المدارس الإقراية التي كانت منتشرة في الأمصار؛ كما أن طرق التعليم المختلفة التي كان الصحابة يعلمون بها القرآن أورثت تعددا في مناهج إقراء القرآن الكريم بقراءاته المختلفة، وقد حاولت إبراز الكيفيات المتنوعة لتحرير الإجازة من خلال طريقة الأخذ والتلقي التي كان القراء الكبار يتعلمون بها القرآن الكريم ، ومن تلك الطرق :

1 . تحديد المقدار الثابت :

وذلك راجع لطريقة الشيخ ووقته وعدد طلابه ؛ فله أن يحدد المقدار لكل واحد منهم على حسب تقدمه ووقته؛ فقد حدث أبو بكر بن عياش عن عاصم قال : « تعلم يحيى بن وثاب من عبيد بن فضيلة آية آية ، وكان والله قارئاً »⁽⁶⁾ ، والمقصود بقوله : وكان والله قارئاً شدة تواضعه لشيخه فرغم

كونه قارئاً إلا أن لم يتدمر من قراءة آية في اليوم ، وهو الذي قال عنه ابن جرير الطبري : « كان مقرئ الكوفة في زمانه »⁽⁷⁾ .

2 . القراءة المصحوبة بالتعلم :

وكانت هذه الطريقة متبعة في عهد الصحابة (رضوان الله عليهم) ؛ فعن مجاهد أنه قرأ على ابن عباس ثلاث عرضات، وقال في قراءته على ابن عباس: « أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت »⁽⁸⁾ .

3 . تكرار الختم :

بغية الإتقان ، والاستزادة من حفظ الروايات والطرق التي يتقنها الشيخ ؛ فقد ذكر معاذ بن معلى أن مجاهد بن جبر كان يقول : « ختمت على ابن عباس تسعا وعشرين مرة »⁽⁹⁾ .

4 . توقيف القراءة إذا طالت :

وحصل هذا لقالون عندما جلس عشرين سنة يقرأ على نافع دون انقطاع؛ قال نافع لقالون : « إلى كم

تقرأ علي ؟ اجلس إلى اسطوانة حتى أرسل إليك من يقرأ عليك»⁽¹⁰⁾.

5. الإجازة بالسؤال :

وهذا كان جائزا عند المتقدمين ، ولم يعتبروه إهانة للشيخ المقرئ ؛ بل هو جزء من عملية الإقراء ؛ لأن الطالب يتعلم السند بعدم تعلمه للرواية والقراءة ؛ فعن هارون بن حاتم عن الكسائي قال: « قلت لحمزة على من قرأت قال : على ابن أبي ليلى وحمران بن أعين ؛ فقلت : فحمران على من قرأ قال : على عبيد بن فضيلة»⁽¹¹⁾.

أمانة الإجازة :

يخطئ بعض المشتغلين بعلم القراءات فيظنون أن الإجازة تزكية من المقرئ إلى القارئ ، وذلك غير صحيح ؛ لأن الإجازة أمانة وليست تزكية ؛ فمن تحصل على سند الإجازة فقد صار أهلا للتحمل والأمانة فلا يدخل في السند إلا من كان أهلا لتحمل تلك الأمانة .

ولذلك كان أهل القرآن من المقرئين يستخيرون الله تعالى بعد ختم القارئ ، وكانوا لا يتخرجون في عدم إجازته إذا بدا لهم أن القارئ ليس أهلا للتحمل ، والسبب في ذلك هو خطورة الإجازة وعظم العواقب المترتبة على الاستهانة بها لما تتميز به من خصائص تؤثر في عملية تعليم القرآن الكريم ، ومن تلك الخصائص :

1 . الإجازة تتضمن معنى الالتزام بأخلاق أهل القرآن وآداب أصحابه ، ومن أجاز ولم يك كذلك فقد خان شيخه وخان رجال السند الذين اتصل اسمه بهم .

2 . الإجازة تتضمن معنى الالتزام بتعليم القرآن من غير تقصير ولا تفريط ؛ فليس للشيخ أن يرد أحدا قصده للقراءة عليه إن كان أهلا للقراءة والإجازة .

• أحمد بن سعيد المسلي المتوفى سنة (540هـ) صاحب كتاب التقريب في القراءات ؛ كان من أعلام الإقراء في الجزائر وإشبيلية بالأندلس ، وذاع صيته في المشرق والمغرب ؛ قصده القراء وارتحلوا إليه ⁽¹²⁾ .

• يوسف بن علي بن جبارة البسكري المتوفى سنة (465 هـ) صاحب كتاب «الكامل في القراءات»، وهو من الأعيان الذين أكرمهم الله في الأمصار، وكان لإقراءهم صدى في البلدان ؛ قال عنه ابن الجزري : «الأستاذ الكبير الرحال، والعلم الشهير الجوال» ⁽¹³⁾ .

• الحسن بن عبد الله بن وَيْحِيَان أبو علي الراشدي التلمساني المتوفى سنة (685 هـ) تلميذ الكمال الضير، وروى الشاطبية عنه؛ قال عنه ابن الجزري: «إمام محقق عارف» ⁽¹⁴⁾

3 . الإجازة ليست عنوانا للانتهاء من التعلم بل تجعل المقرئ يتواصل مع التعلم دون توقف ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

4 . إعطاء الإجازة لمن لا يستحقها تضييع للقرآن الكريم ؛ فلا يجوز إعطاء الإتقان إلى غير أهل القرآن .

ماضي الإقراء في الجزائر عطاء مشرق، ورسالة متوارثة:

إن ماضي الإقراء في الجزائر يشهد لأثار العلماء المقرئين الجزائريين عبر تاريخها العريق؛ حيث لم يقصر هؤلاء العلماء في الحفاظ على التحمل الصحيح وإيصال أمانة الإقراء للأجيال المتتالية .

وكان منهم ثلة من المقرئين توزعوا في المدن الكبرى للجزائر كتلمسان، وبجاية، وقسنطينة، والمسيلة، وبسكرة، ومنهم:

وقد أدى هؤلاء العلماء أمانة الإقراء على وجهها الصحيح، وأعطوا للأمة في المشرق والمغرب المثل الرائع في أمانة الإجازة والإقراء؛ فالبسكري في كتابه الكامل يضع في أدب القارئ والمقارئ منهجا مثاليا في أدب القارئ مع شيخه؛ فيقول: «اعلم أنه يجب على القارئ أن يحسن الأدب مع المقارئ، ويتباعد منه في الجلوس ولا يستقبله بنفسه ... ولا يجلس على رجله ويقابله بعينه؛ بل يطأطئ رأسه، ويشغل بما هو بصده، ولا يرفع صوته عليه ولا يتعنته في السؤال؛ فإن علم أنه يعلم ما يسأله عنه فلا بأس بذلك، ولا يذكرن غيره ممن يعانده بين يديه، ولا يذكرن أحدا إلا بخير، ويشغل بالتعليم والتعلم والتوقير والتفهم ليضع البركة فيما علم وإن قل، ولا يطلبن عليه الزلل، ويوقر غيره بخير بما علم؛ باثا علمه؛ قاصدا به الله تعالى من غير أن يطلب

• علي بن محمد أبو الحسن التلمساني الضرير الكتامي؛ يعرف بابن الخضار؛ إمام مقارئ، نزل سبته وأقرأ بها، قرأ على علي بن عبد الكريم بتلمسان، قرأ عليه الأستاذ أبو اسحاق الغافقي، وقد وُصف بإحكام القراءات وحفظها⁽¹⁵⁾.

• أحمد بن محمد بن علي أبو العباس الزواوي مقارئ قسنطينة، قرأ على إبراهيم بن أحمد الغافقي وعلي ابن سليمان بن أحمد، ومالك بن المُرَجَّل، وروى القراءة عنه أحمد بن مسعود بن الحاجة التونسي⁽¹⁶⁾.

• فتح بن عبد الله أبو نصر المرادي التلمساني من جلة المقرئين بالمغرب، رحل إلى المغرب وقرأ على ابن هذيل⁽¹⁷⁾.

• علي بن عبد الكريم التلمساني شيخ تلمسان؛ من أساتذة القراءات الجزائريين⁽¹⁸⁾.

الفقيه، والمقرئ المحدث، والمقرئ اللغوي، والمقرئ النحوي، وغيرها من تخصصات في العلوم المختلفة ؛ بل وتعدى وجود القراء والمقرئين دائرة العلم إلى دائرة المهن والصنائع ؛ فكان منهم المقرئ الفلاح كأبي بكر عتيق بن محمد الأندلسي تلميذ أبي جعفر الفحام الذي كان فلاحا بستانيا ، ورؤي عنه أنه كان يمشي إلى الفحام مسيرة يوم كامل للقراءة عليه ولا يتعب⁽²⁰⁾ ، وكان منهم المقرئ النحاس والحداد كالقصاع الدمشقي الذي كان يعمل في خرط القصع⁽²¹⁾ ، وكان منهم الموثق والقاضي كابن مرجل⁽²²⁾ تلميذ أبي جعفر الفحام ، وغيرهم من القراء الكبار الذين توزعوا في مجتمعاتهم يضربون المثل في خدمة الأمة من حيث:

1. نشر الفضائل في المجتمع؛
- بنصائحهم الغالية التي كانوا يبثونها

به أجرة ولا ترفعا ولا ينهأ أن يقتبس من غيره ... ومن لم يعظم أستاذه لم ينتفع بعلمه ؛ حتى روى يحيى بن آدم أنه قال : «جالست أبا بكر (شعبة) أربعين سنة أسأله عن حروف عاصم حرفا حرفا، ولم أقرأ عليه هيبة له»⁽¹⁹⁾. فهذا منهاج لا مثيل له في أدب القارئ وضعه المقرءون في الجزائر ؛ فإذا كان القارئ متصفا بهذه الآداب وهو يقرأ على الشيخ ؛ فكيف يكون أدبه عندما يصبح مقرئا لغيره ، وما قاله البسكري يدل على الهيبة التي اتصف بها علماء وقراء الجزائر في إقراءهم للقرآن الكريم. إلا أن واقع الإقراء اليوم يمر بحالة من الركود بسبب الظروف التي لا تتلاءم مع الرسالة الإقراية التي يؤدها المقرءون؛ فالخدمات الراقية التي تتحقق بفضل جهود القراء والمقرئين لا يستطيع غيرهم القيام بها ؛ فهم أهل الله وخاصته ، وقد كان منهم المقرئ

في نفوس الناس في مجالسهم وخطبهم وحلقات إقراءهم .

2. تحقيق الرضا الاجتماعي والقناعة الجماعية؛ بتعدد مهتهم وصنائعهم، واستغنائهم بها عن الناس، وقودتهم الحسنة في المجتمع .

3 . تثبيت الناس وخاصة الشباب على خصال الخير، وهذا ظاهر في كلامهم وخطبهم (رحمهم الله) .

4 . العمل على تقليل الهجرة نحو البلدان لتلقي القراءات لوجود المقرئ المقيم ؛ كما قال علي (رضي الله عنه) لأبي عبد الرحمن السلمي: «عليك بزيد بن ثابت» ؛ قال: فأقبلت على زيد فقرأت عليه القرآن ثلاث عشرة مرة⁽²³⁾ .

5 . صناعة الرأي المعتدل القائم على نشر المحبة بين الناس، ولا ريب في أنهم كانوا معتدلين في طريقهم متوسطين في تدينهم، ولم يظهر عليهم التطرف والغلو إلا ما كان من تركهم للمجاملة في الحق .

6 . نشر البشر والسعادة ببث روح التفاؤل في النفوس، وهذا من صميم عملهم وغاية إقراءهم ولذلك كانت مجالسهم عامرة بالناس على اختلاف توجهاتهم وتنوع اهتماماتهم .

ولا غرابة في هذا كله لأن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، ولو تركنا المقرئ المخلص يعمل بكل حرية ، وأعناؤه على تجاوز صعاب الحياة لقدّم للمجتمع الخير الكثير، ومع كثرة المقرئين ينتشر هذا الخير في ربوع البلاد وتنعم الأمة بنعيم الاستقرار والطمأنينة ؛ ففي غياب المقرئين تحدث السلبيات الاجتماعية الآتية :

1. ضعف الوازع الديني لعدم وجود الاهتمام بحفاظ القرآن ومقرئيه ومعلميه .

مفتاح خير للأمة ، ومغلاق لكل فتنة عمياء ، وإحباط لكل مؤامرة خبيثة تحاك ضد الأمة لإضعافها وابتزازها في حاضرها ومستقبلها ، وهو عمل حضاري ينبغي أن تتحد جهود الزوايا ومدارس تحفيظ القرآن في سبيل إنجاحه؛ لتعلقه بكافة جوانب الحياة في المجتمع .

2. غياب التكامل بين العلوم الشرعية الذي يؤول إلى السماح لمن لا يحسن العلم بالتصدر للإقراء .

3 . غياب المقرئين يولد حالة من الاضطراب وفقدان السكينة في النفوس؛ لأن السكينة هي من نتائج انتشار القرآن ؛ فإذا ما غابت رسالة المقرئ ساد الاضطراب وانتشر القلق الاجتماعي ، ولا ريب أن بعث الاطمئنان النفسي في المجتمع هو من اختصاصات المقرئين .

4 . غياب المقرئين وضعف رسالتهم يؤدي إلى غياب التوجيه والتوعية مما يولد حالة من التردّي في الخلق والسلوك .

وعليه فإن رسالة إجازة الإقراء هي صمام الأمان في كافة المراحل التي تمر بها الأمة ، والعمل على احترامها والسماح للمقرئين بتحقيق رسالتهم وإعطائهم الثقة في إنجاز مهامهم هو